

دراسة نقدية لموقف المغراوي من آية التطهير

سيد هاشم موسوي^۱

تاریخ دریافت: ۱۴۰۰/۰۷/۲۱

تاریخ پذیرش: ۱۴۰۰/۰۹/۱۲

المخلص

تعتبر آية التطهير من الآيات التي تدل على عصمة أهل البيت عليهم السلام وقد فسرها المغراوي خلاف مذهب الشيعة، من أن الإرادة التشريعية لا تكوينية، ومعنى الرجس هو الكفر، وبيان معنى «أهل البيت» بأنهم النبي صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وأزواجه. سلك الباحث في منهج كتابته للمقالة المنهج الوصفي والتحليلي، وكان الهدف منها تسليط الضوء على آية التطهير من تفسير ابوسهل محمد بن عبدالرحمن المغراوي الموسوم بـ«التدبر والبيان في تفسير بصحيح السنن»، وجعل نساء النبي معهم وتبعتها عن مقام عصمتهم صلوات الله عليهم، فكانت أهمية هذه المقالة هو الدفاع والكفاح وإثبات ما ثبت عند جمهور المسلمين في ما ورد في هذه الآية في حقهم من اختصاصها بأهل الكساء الخمسة دون غيرهم، وإثبات عصمتهم.

الكلمات الدلالية: الإرادة، أهل البيت، آية التطهير، التدبر والبيان، العصمة، المغراوي.

۱. السطح الثالث المخصصة في المذاهب الإسلامية، المركز التخصصي للأئمة الأطهار عليهم السلام.

sydhashmmwsy@gmail.com

التمهید

إنطلاقاً من آية التطهير «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (الأحزاب: ٣٣) وهي من الآيات التي قد تعرّض إليها أغلب المفسرون والمحدثون وأصبحت محل نزاع وركاب كل باحث ومحقق وأصبحت من أهم الآيات التي يبحث فيها لإثبات معتقد من أصول عقائد المذهب الامامي الإثنى عشري، وهي عصمة من خوطب بها وفقاً لروايات العامة والخاصة بأنها نزلت في واقعة معينة تخصّ ثلّة خاصّة من أقرباء النبي ﷺ، وقد كبّحت المتعصّبين بلجام عصبيتهم، وأعيتهم عن التنكّر لأفضلية أهل البيت ﷺ وأحقّيتهم وكمالهم، ومن هؤلاء ابوسهل محمد بن عبدالرحمن المغراوي فلقد وقف عندها في تفسيره الموسوم بـ «التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن»، وسوف يذكر الباحث ما ذهب إليه المغراوي، ثم يرد عليه بما إتفق عليه أعلام المسلمين من كلا المدرستين.

١. الدراسات السابقة

بعد البحث والتنقيب في المصادر والمكتبات وشبكات التواصل الإلكترونية، قد عثر الباحث على أن أكثر أعلام المسلمين قد تعرّضوا في تفاسيرهم لهذه الآية منهم ابن أبي حاتم (١٤١٧ق: ٣١٣١/٧) والحاكم الحسكاني (١٣٩٣ق: ١٠) وابن جرير الطبري (١٤٢١ق)، ١٩، ١٠١-١٠٧) والآلوسي (١٤٢٠ق: ١٤-١٥) وغيرهم من أعلام مدرسة الخلفاء، وايضاً من أتباع مدرسة أهل البيت ﷺ قد وقف عندها وقوف عرض ودراسة تحليلية علمية كالشيخ محمد فاضل النكراني في كتابه: آية التطهير في رؤية مبتكرة، والسيد علي الحسيني الميلاني في كتيب له: سلسلة الندوات العقائدية.

ومن الذين وقف عندها المغراوي في تفسيره الموسوم بـ «التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن» ولم يعثر الباحث على من تعرّض لنقده وعلى هذا الأساس يعتبر هذا التحقيق أول من طرق باب البحث والنقد للمغراوي، ولكن يوجد ردّ في مقالة كتبت بقلم الأستاذ محمد علي مهدي راد على كتابه الآخر «المفسرون بين التأويل والاثبات في آيات الصفات» باللغة الفارسية المسماة «نگاهی به کتاب المفسرون بین

التأويل والإثبات في آيات الصفات». وكان وجه التشابه بين ما كتبه الباحث في هذه المقالة، هو الرد على وجهة نظر المغراوي من تفسير القرآن الكريم، والإختلاف بين هذا الرد والرد الذي في المقالة الفارسية هو من حيث التجذير والتأصيل والشمولية هناك فرق شاسع.

٢. التعريف بالمغراوي وتفسيره

إن محمد بن عبد الرحمن المغراوي هو من جهاذة علماء المغرب في مراكش، وكانت له رحلات كثيرة منها رحل لإتمام الدراسة إلى المدينة النبوية فالتحق بالجامعة الإسلامية فأتّم بها التعليم الثانوي ثم الجامع، ثم حصل على شهادة الدكتوراة، وله باعٌ في التأليف والتصنيف في السيرة والأدب والحديث والتفسير، ومن مؤلفاته في التفسير هذا التفسير الموسوم بـ«التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن» وقد إشتهر في الأوساط العلمية عند مدرسة العامة، كما في المغرب خاصة ومنها المراكش وعند السلفية على العموم، وكما نسمعه اليوم من لسان مثل الشيخ سمير عمر المراكشي بأن هذا التفسير يعتبر من أشمل وأكمل التفاسير المعاصرة من حيث السعة والشمولية، والمؤلف في هذا التفسير قد تناول الآيات شرحاً وتبياناً وتشقيقاً وتفسيراً وإستخرج منها ما هو عقدي وفقهي وخلقي، وأصل لذلك أصولاً ومباني وقواعد.

حيث أن القارئ ينهر لسعة إطلاع المفسر وطول باعه في الفقه والتفسير والسيرة والإصول والرجال، ومذهبه سلفي هو من أتباع ابن تيمية.

٣. موقف المغراوي من آية التطهير

يجد الباحث أنه قد غفل المغراوي أو تعمّد بعدم ذكر أهل البيت عليهم السلام، ومقاماتهم عليهم السلام عند تفسيره للآيات المرتبطة بهم عليهم السلام؛ وتحقيق لهذا البيان وتوضيح لهذه الحقيقة مع أن مقام أهل البيت عليهم السلام، في القرآن والسنة أشهر من أن يخفى وأكبر من أن ينسى، وهم عدل القرآن وورثة سيد الأكوان ومن تلك الآيات آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) التي وقف عندها المغراوي، فسوف نجعلها تحت مجهر التحقيق والعرض بنظر المغراوي ونقده.

۱-۳. معنی الإرادة فی «یُریدُ الله»

نقل المغراوي لبيان الإرادة في تفسيره قول ابن تيمية الحراني حيث قال: «إن الإرادة في هذه الآية متضمنة لمحبة الله لذلك المراد ورضاه به، وأنه شرعها للمؤمنين وأمرهم بها، ليس في ذلك أنه خلق هذا المراد، ولا أنه قضاه وقدره، ولا أنه يكون لا محالة، ودليل على ذلك قول النبي في قوله «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» فطلب من الله لهم إذهاب الرجس والتطهير فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بأنه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم، لم يحتج إلى الطلب والدعاء» (المغراوي، ۱۴۳۵ق: ۱۷۶/۲۷)

۲-۳. معنی «الرجس»

لفظ الرجس أصله القدر، ويراد به الشرك؛ كقوله «فاجتنبوا الرجسَ مِنَ الْأَوْثَانِ» (الحج: ۳۰)، ويراد به الخبائث المحرمة كالمطعومات والمشروبات كقوله: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا» (الأنعام: ۱۴۵)، وغيرها من الآيات الواردة في هذا الباب وسياق الآية يقتضي أنه يريد ليذهب عنهم الخبث كالفواحش وغيرها من الذنوب ولكن ليس في ذلك ما يدل على العصمة من الخطأ. (لمصدر نفسه: ۱۷۶/۲۷).

۳-۳. معنی «أهل البيت»، والقاء نظرية الإشتراك

قال المغراوي بأن هذه الآية وردت في أزواج النبي ﷺ علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ كما صرح بذلك القرطبي في تفسيره (۱۴۲۱ق: ۱۸۳/۱۴) وأبو المظفر السمعاني في تفسيره (۱۴۱۸ق: ۲۸۱/۴) لأمر منها:

ألف: كون قرينة السياق صريحة في دخولهم، لأن الله تعالى قال: «قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِذْنَ» (الأحزاب: ۲۸)، ثم قال في نفس خطابه لهم: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا»، ثم قال بعده: «وَإِذْ كُنَّا مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ» (الأحزاب: ۳۴)

ب: إجماع جمهور علماء الأصول على أن سبب النزول قطعية الدخول فلا يصح إخراجها بمخصّص.

ج: أنه عبّر في الآية بضمير الذكور في «عَنْكُمْ» و«وَيُطَهَّرُكُمْ»، مع أن ما قبلها وما بعدها ضمائر مؤنثة وخطاب لزوجات النبي ﷺ، وفي هذا دليل لشمول الآية زوجات النبي ﷺ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين. (المغراوي، ١٤٣٥ق: ١٧٦/٢٧)

٤. تحليل و نقد على المغراوي

١-٤. مفهوم الإرادة

الإرادة لغة تأتي بمعانٍ متعددة منها: المشيئة (ابن منظور، ١٤١٤ق: ٢٤٨/٧؛ الطريحي، ١٣٧٥ش: ٧٥٢/٢)، يقال: أراد الشيء، شاءه (ابن منظور، ١٤١٤ق: ٣٦٦/٥)، ومعنى الإرادة في الاصطلاح العقدي صفة توجب ترجيح أحد طرفي ما يقع في دائرة القدرة (الشريف المرتضى، ١٣٨١ش: ٣٥٥)، إن لفظ الإرادة ومشتقاتها من الألفاظ القرآنية الكثيرة الإستعمال، وهي أيضاً من الألفاظ الشائعة في المحاورات العرفية، وهي تنقسم إلى قسمين:

ألف) تكوينية، وهي: إرادة الشخص صدور الفعل عنه بنفسه، من دون تخلّل إرادة غيره في صدوره، كما في إرادة الله تعالى خلق العالم، وإيجاد الأرض والسماء، وإرادتك أكلك وشربك وصلاتك وصيامك.

ب) تشريعية، وهي: إرادة الشخص صدور الفعل من غيره، بإرادته وإختياره، كما في إرادة الله تعالى صدور العبادات والواجبات من عباده، بإختيارهم وإرادتهم، لا مجرد حصولها بأعضائهم، وصدورها بأبدانهم بدون تخلّل القصد منهم، وكما في إرادتك صدور الفعل من إبنك وخادمك بلا إجبار منك وإلجاء. (المشكيني، ١٤١٣ق: ٢٩)

وحينئذ يصبح الفارق الرئيسي بين هذين القسمين هو تخلّل الإرادة الإختيارية بين المرید وتحقق الفعل المراد، فمتى كان بإمكان إرادة الطرف الآخر أن تحول بين الفعل ومریده، كانت تلك الإرادة من قسم الثاني - أعني التشريعية - وإلا فهي من القسم الأول أي التكوينية.

أما فيما يرتبط ببحثنا أن الإرادة في قوله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ»، هي من القسم الثاني - أعني التشريعية - كما هو عليه المغراوي، فيكون المعنى: «إنما شرّعنا لكم أهل البيت الأحكام لنذهب عنكم الرّجس ونطهّرکم».

هذا التفسير الإرادة ينافي مع الحصر المستفاد من كلمة «إِنَّمَا»، كما هو عليه جمهور العلماء (السيوطي، ١٤١٦ق: ٢/٢٢٢) إذ من الواضح أنَّ الغاية من تشريع الأحكام إذهاب الرِّجس عن جميع المكلفين لا عن خصوص أهل البيت عليه السلام، ولا خصوصية لهم في تشريع الأحكام، وليست لهم أحكام مستقلة عن أحكام بقية المكلفين هذا أولاً.

ثانياً: إن حملها على الإرادة التشريعية يتنافى أيضاً مع إهتمام النبي صلى الله عليه وآله بأهل البيت عليه السلام، كما ورد عن أنس بن مالك «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر، ويقول: الصلاة يا أهل البيت، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (الترمذي، ١٤٢١ق: ٥/٣٥٢) وتطبيق الآية عليهم بالخصوص كما نصَّ على ذلك الآجري حيث قال: «هم الأربعة الذين حووا جميع الشرف وهم علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين.» (الآجري، ١٤٢٠ق: ٥/٢٢٠)

ثالثاً: إن حملها على التشريعية يبعدها عن كونها منقبة للمخاطبين بها من أهل البيت عليه السلام، لأنها إنشاء وطلب للتطهير وإذهاب الرِّجس من المخاطبين بها، وهذا خلاف ما أجمع عليه المفسرون في فهم هذه الآية المباركة، من أنَّها بصدد الإخبار عن منقبة وفضيلة لأهل البيت عليه السلام (ابن أبي حاتم، ١٤١٧ق: ٧/٣١٣١-٣١٣٣؛ الواحدي، ١٤١١ق: ٣٦٨-٣٦٩؛ الشوكاني، ١٤٣١ق: ٤/٣٦٧-٣٦٩)، ولهذا نجد النزاع فيها قائماً على قدم وساق (الفخر الرازي، ١٤٢٣ق: ٢٥/٢٠٩) وهذا خير شاهد على أنَّ الآية ليست بصدد الإنشاء والطلب؛ بل هي إخبار عن أمر خارجي وهذا لا ينسجم إلا مع الإرادة التكوينية.

إن قلت: ظنَّ بعض (القاسمي، ١٤١٨ق: ٨/٧٤) أن القول بالإرادة التكوينية مسوق للجبر من صدور وعدم صدور الفعل من إهل البيت عليه السلام، فلا فضل ولا فخر لهم.

قلت نقضاً: إن تعلق إرادة الله سبحانه وتعالى بأهل البيت عليه السلام هي سنخ إرادة التي متعلقة بالأنبياء بردعهم من الذنوب والمعاصي على سبيل المثال كيوسف عليه السلام «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» (يوسف: ٢٤)، نقل عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام لقد همت به، و لولا أن رأى برهان ربه لهم بها كما همت، لكنّه كان معصوما و المعصوم لا يهمل بذنب و لا يأتيه»

(الهوزي، ١٤١٥ق: ٢/٤٢١)، بل السيدة مريم أن الله عصمها من كل ذنب ومعصية كما ورد في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢)، ولم يقل أحد أنهم مجبورون على الفعل وتركه.

وأما حلًّا، أولاً: لا ملازمة بين كون الإرادة تكوينية وبين الجبر؛ فإن هذا ناشئ عن عدم فهم معنى كيفية طهارتهم التي هي ناشئة عن العلم، وغرس العلم في نفس العالم لا يوجب جبره على الالتزام بعلمه، وهذا ما صرح به آية الله المنير الخباز: «فهذا نظير أن الله عز وجل غرس في قلب النبي علم القرآن حيث قال ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ» (الشعراء: ١٩٣، ١٩٤) فهل معنى ذلك أن النبي ﷺ مجبور على العمل بهذه المعلومات القرآنية التي غُرست في قلبه؟! وهل معنى ذلك أن إرادة نزول القرآن على قلب النبي ﷺ كانت إرادة تشريعية؟! بل كانت إرادة غرس علم القرآن في قلب النبي إرادة تكوينية، ولم يترتب عليها الجبر؛ لأن متعلق هذه الإرادة هو العلم، وليس متعلقها هو العمل، ففرق بين أن تتعلق الإرادة بالعمل وبين أن تتعلق بالعلم» (حول آية التطهير، ٢٠١٤م: ٢٢/٠٣) فمعنى الإرادة التكوينية أنه سبحانه وتعالى غرس في قلوب هؤلاء الصفوة علماً يقينياً بثمرات الطاعة ومفاسد المعصية، فأصبحوا يعلمون بهما كما يعلمون عدد أصابعهم الخمسة، فمنشأ عصمتهم علمٌ يقيني بدرجة حق اليقين الذي إذا حصل للإنسان إذا انصرف نفسه بشكل إختياري عن مداولة المعصية، وإنصرفت نفسه بشكل إرادي إلى ممارسة الطاعة، وهذا نظير أن يعلم الإنسان علماً حسيّاً بقذارة البول وقذارة المني فينصرف عن شربهما باختياره، كما أن علم الإنسان علماً بديهيّاً واضحاً بلذة التفاح مثلاً لا يجبره على أكل التفاح وإنما يوجب أن تنصرف نفسه إلى أكل التفاح انصرافاً اختيارياً.

ثانياً: إن متعلق إرادة الحق تعالى في الآية الكريمة هو إبعاد الرجس والذنب عن أهل البيت ﷺ لا منعهم عن ارتكابهم ووقوعهم فيه، وهل يبقى لشبهة الجبر محل؟ وهذا كما أشار إليه العلامة المرحوم آية الله العظمى الشيخ فاضل النكراني حيث قال: «بعد التأمل في الآية نرى أن إعراب كلمة «لِيَذْهَبَ» هو مفعول به، وهي بذاتها جاءت في آيات أخرى تارة محللة باللام، وتارةً بـ «أن»، على سبيل المثال، فقد جاءت في سورة التوبة:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (التوبة: ٥٥)، وفي سورة نفسها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ (التوبة: ٨٥)، وبالنظر في هاتين الآيتين يتبين أن اللام في الآية الأولى ليست للغاية بل هي بمعنى «أن»، ولا ترديد في أن «أَنْ يُعَذِّبَهُمْ» في الآية الثانية هي مفعول به لفعل «يريد» على التأويل بالمصدر، أي: يريد عذابهم، ويستنبط في هذا المعنى اتحاد بين اللام وأن في هذه الأمثلة، وبالنتيجة هو مفعول به لفعل «يُرِيدُ اللَّهُ»، (فاضل النكراني، ١٤٢٤ق: ١١٣)، ولا يخفى على القارئ الكريم، وهذا نصّ عليه علماء العامة كابن عاشور. (١٩٨٤ق: ٩٦/٤)

فبهذا البيان يتضح لنا بأن متعلق الإرادة في آية التطهير هو الإذهاب أي الإبعاد؛ يعني أن الله أبعد الرجس عن أهل البيت عليه السلام، بمعنى إيجاد فاصل بينهم وبين المعاصي والأرجاس، إذن التدخل الإلهي كان من هذه الزاوية فقط، وعلى هذا إرادة الباري لم تنعقد على عدم فعلهم الذنوب بل على إيجاد المسافة الفاصلة التي تنزههم وتبعدهم عن الذنوب، وهذا الإبعاد لا يخلو من عناية ولطف إلهي اختصّ به هؤلاء عليه السلام، ولكنه لا يعني بأي حال من الأحوال سلبهم الإرادة والاختيار وعدم صدور المعصية عنهم جبراً؛ بل أن الفصل بين الإنسان والذنوب ليس جبراً وإنما هو توفيق، وهذا لا يلقاه إلا ذو حظّ عظيم.

٢-٤. معنى الرجس

إن كلمة الرجس التي جاءت في ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ عامّة شاملة لتمام أنواعه لا فقط ما ذهب إليه المغراوي، وذلك لما تفيد «ال» في «الرجس» من العموم والشمولية؛ إذن هي إما تكون للجنس، أو للإستغراق، لأنه لم يتقدّم ذكر أو إشارة إلى الرجس في الآيات السابقة لتكون «ال» حينئذ عهديّة، فإذا تعني نفي الرجس عن هؤلاء البررة نفيّاً عامّاً شاملاً لجميع مستويات الرجس، سواء على مستوى الاعتقاد، أو الأعمال والأخلاق والسلوك.

فكل رجس وكلّ قذارة فقد أذهبها الله تعالى عنهم وأثبت مكانها الطهارة المؤكّدة، كما هو مدلول قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً﴾. ونصّ على هذا الفخر الرازي في تفسيره حيث قال في قوله تعالى ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرْكُمْ﴾ لطيفة، وهي: أن

الرجس قد يزول عينا ولا يطهر المحل، فقله تعالى: ﴿لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ﴾ أي يزيل عنكم الذنوب ﴿وَيُطَهِّرْكُمْ﴾ أي يلبسكم خلع الكرامة. (الرازي، ١٤٢٣ق: ٢٥/٢٠٩)

٣-٤. مفهوم «أهل البيت» ونقد نظرية الإشتراك

٤-٣-١: «أهل البيت» لغة

يتضح من كلام اللغويين أن كلمة «أهل» تدلّ على نوع من العلاقة بين إنسان وآخر، أو إنسان وشيء آخر، فزوجة الرجل أهله، كما أن أقرب الناس إليه هم أهله، وأمة كل نبيّ أهله. والذين يسكنون في بيت أو مدينة أو قرية هم أهل ذلك البيت وتلك المدينة والقرية. وأتباع كل دين ومذهب هم أهل ذلك الدين والمذهب. ذووا علم أو فن هم أهل ذلك العلم والفن (ابن فارس، ١٣٩٩ق: ١/٩٣؛ الفيومي، ١٣٩٧ق: ١/٣٧؛ ابن منظور، ١٤١٤ق: ١/١٨٦) و«البيت» كما ورد من بات بيت بيتوتة ومبيتة فهو بايت (الفيومي، ١٣٩٧ق: ١/٦٧)، أي محل السكونة والبيتوتة، وأهل البيت جمعاً كما نصّ عليه أهل الاختصاص: الأصل فيه القرابة. (المصدر نفسه).

٤-٣-٢. أهل البيت اصطلاحاً

أهل البيت في الاصطلاح كما ورد في معاجم اللغة هم أقرباء الرجل، واستخدم هذا المصطلح في آيات من القرآن الكريم، منها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣) ويمكن أن يقال بأن أهل البيت ليس كل أقرباء النبي ﷺ بل من كان من سنخه في الإيمان والتقوى والطهارة من الرجس، ولهذا إن ابن نوح كان يطلق عليه المصطلح اللغوي ولكن في منطق القرآن عبر عنه سبحانه وتعالى ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود: ٤٦)، فإذاً أهل البيت النبي ﷺ، في مصطلح القرآني ليس كل أقرباء وعائلته، بل من كان مطهراً من الرجس والدنس وكل قذارة.

٤-٣-٣. «أهل البيت» مصداقاً

أولاً: أن الضمائر في الآية كلّها مذكّرة أعني «عنكم» و«يطهركم» مع أن الضمائر في

الآیات المتقدمة والمتأخرة كلها جاءت على وجه التأنيث، وهذا دليل على أن الآية ناظرة على غير سياقها ولا مرتبطة بالآيات ما قبلها وما بعدها، وإليك صور الضمائر ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ﴾ (الأحزاب: ٢٨ - ٣٠) وغيرها من الضمائر المتقدمة على الآية.

وأما الضمائر المتأخرة عنها فهي ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (الأحزاب: ٣٤)، ولا يخفى أن الذي يؤكد خروج النساء من الآية وأن المعنيون فيها ليس نساء النبي ﷺ، هو أن الله سبحانه وتعالى أفرد لفظ «البيت» في الآية وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) ولكنه عبّر عن بيوت أزواجه بصيغة الجمع وقال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وعلى هذا فهناك «بيت» معروف مشخص أضيف إليه «أهل» فأصبحت العبارة «أهل البيت»، وفي الوقت نفسه هناك بيوت لنسائه وأزواجه، فالمتواجد في البيت الأول، غير المتواجد في البيوت. (انظر: ما قاله آية الله سبحانه ١٤٣٤ق: ١٨)

ثانياً: إن الروايات الواردة في هذا الباب عن النبي ﷺ في تخصيص الآية بأهل البيت عليه السلام تارة تصرح بأسمائهم كما عن أبي سعيد الخدري حيث قال: قال رسول الله ﷺ «نزلت هذه الآية في خمسة: في علي رضي الله عنه والحسن والحسين وفاطمة رضي الله عنهما» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ (الطبري، ١٤٢١ق: ٩/٢٢)، وتارة أدخلهم تحت الكساء، كما عن عائشة: «خرج النبي ذات غداة، وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾» (صحيح مسلم، ١٤٢٠ق: ١٣٠/٧) وتارة يقف على باب فاطمة وعلي ﷺ وبمدة ستة أشهر يقرأ هذه الآية كما ورد في السنن والمسانيد (سنن الترمذي، ١٤٢١ق: ٣٥٢/٥؛ مسند أحمد بن حنبل، ١٤١٦ق: ٢٨٥/٣؛ مسند أبي يعلى، ١٤٠٤ق: ٢/٩؛ مسند حميد، ١٤٢٣ق: ٣٤٨/٣)، وقد بلغ عدد الروايات الواردة في تخصيص أهل البيت عليه السلام بالخمس ما يصل إلى ٣٥ رواية، وقد أخرجها بعض المفسرين (الحاكم الحسكاني، ١٣٩٣ق: ١١/٢؛ الطبري، ١٤٢١ق: ٩/٢٢؛ السيوطي، ١٤٠٤ق: ١٩٨/٥؛ الفخر الرازي،

١٤٢٣ق: ٨/٨٥)، ويتصل أسانيدھا إلى ثمانية من صحابة النبي ﷺ وهم ١. أبو سعيد الخدري، ٢. أنس بن مالك، ٣. ابن عباس، ٤. أبو هريرة الدوسي، ٥. سعد بن أبي وقاص، ٦. وآلة بن الأسقع، ٧. أبو الحمراء، هلال بن الحارث، عائشة وأم سلمة.

ثالثاً: هذا الاختصاص ما نفهمه من النصوص ومن كلمات بعض أعلام أهل السنة من أن النبي ﷺ حصرها بأشخاص معينين.

وهذا ما ذكره العلامة الطحاوي حيث قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ دعا رسول الله علياً وقال اللهم هؤلاء أهلي ... ففي هذا الحديث هم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين... فدل ما رويناه في هذه الآثار بأن أم سلمة مما ذكر فيها لم يرد به أنها كانت ممن أريد به مما بالآية المتلوّة في هذا الباب... فقالت يا رسول الله أنا من أهل البيت في حديث، فقال أن لك عند الله خيراً، فوددت أنه قال نعم فكان أحب إلي مما تطلع عليه الشمس وتغرب... لأننا قد أحطنا علماً أن رسول الله جمع هؤلاء، إذن استحال أن يدخل معهم فيما أريدت سواهم.

ثم إن الطحاوي يقول: أخشى أن تقول أن بعض النصوص عبرت عن أم سلمة أنها من أهلي، وعبرت عن عائشة في حديث الإفك أنها من أهلي، يقول: ليس المراد «من أهلي» في هذه النصوص أهل البيت الوارد في الآية الكريمة، أخشى أن يخطر على ذهنك هذا المعنى ولهذا نقل هذه الرواية عن وائلة، قال: أتيت علياً فلم أجده فقالت فاطمة إنطلق إلى رسول الله يدعوه، قال: فجاء مع رسول الله فدخلوا ودخلت معهما، فدعا رسول الله الحسن والحسين فأقعد كل واحد منهما على فخذه... فقال: «اللهم هؤلاء أهلي أنهم أهل حق»... فقلت يا رسول الله: وأنا من أهلك قال: وأنت من أهلي، قال وائلة: فإنها من أرجى ما أرجوه، ووائلة أبعد منه صلى الله عليه وآله وسلم من أم سلمة منه، لأنه إنما هو رجل من بني ليث، ليس من قريش، وأم سلمة موضعها من قريش موضعها الذي هي فيه منه، فكان قوله لوائلة أنت من أهلي على معنى لا تبعك إياي وإيمانك بي فدخلت بذلك في جمعتي، وقد وجدنا الله قد ذكر في كتابه ما يدل على هذا المعنى بقوله ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ (هود: ٤٥) فأجابه في ذلك بأن قال له ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ

أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» (هود: ٤٦) وكلما جاز أن يخرج من أهله جاز أن يدخل في أهله من يوافقه في دينه وإن لم يكن من ذوي نسبه... فمثل ذلك أيضاً ما كان من رسول الله جواباً لأُم سلمة أنت من أهلي يحتمل أن يكون على هذا المعنى أيضاً وأن يكون قوله لها ذلك كقوله لوائلة، (الطحاوي، ١٤١٥ق: ٢/٢٣٥) ونص على هذا أيضاً أبو المحاسن يوسف بن موسى الحنفي (بلاط: ٢/٢٦٦). إذن هؤلاء الأعلام فهموا أن (من أهلي) شيء و (أهل البيت) في آية التطهير شيء آخر ولا علاقة لأحدهما بالآخر.

وايضاً من الذين فهم من المحدث من أتباع مدرسة الخلفاء، أن الآية مختصة بأصحاب الكساء الخمسة دون غيرهم، هو الآجري، الذي قال الذهبي عنه: «لآجري الإمام المحدث القدوة الشيخ الحرم الشريف، صاحب التأليف وكان صدوقاً خيراً عابداً صاحب سنة وأتباع». (الذهبي، ١٤٢٧ق: ١٦/١٣٣)

فقال الآجري: «ذكرهم الله عز وجل في كتابه في غير موضع، وأمر نبيه أن يباهل بهم فقال جل ذكره ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١) وقال محمد بن الحسين في ذيل قوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ هم الأربعة الذين حووا جميع الشرف وهم علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين. (١٤٢٠ق: ٥/٢٢٠)

وأيضاً ممن صرح بهذا الاختصاص من العلماء أبو منصور عبد الرحمن بن عساكر الشافعي حيث يقول: «نزلت هذه الآية في بيت أم سلمة... وخاصة في حق هؤلاء المذكورين فيها». (١٤٢٩ق: ١٠١-١٠٢)

فتحصل مما ذكرنا أن مصداق أهل البيت عليهم السلام في هذه الآية هم علي بن أبي طالب عليه السلام وفاطمة عليها السلام والحسن والحسين عليهم السلام وهذا المعنى كان في وقته أشهر من أن يذكر، بحث لو يدعي أحد خلاف ذلك لابد أن يأتي بدليل.

٤-٣-٤. عرض ونقد نظرية الاشتراك

إن نظرية إشتراك النساء مع أصحاب الكساء كما يتبناها المغراوي وسلفه، أهم دليلهم على ذلك هو سياق الآيات، ورواية الضحّاك بن مزاحم.

يرد على ذلك نقضاً وحلاً:

أما نقضاً:

أولاً: إنّ بعض الآيات في القرآن الكريم لم يراع فيها السياق منها آية الإكمال «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» التي جاءت في وسط آية «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسِقُ الْيَوْمِ يَشَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (المائدة: ٣)، أخرج الحسكاني وغيره بإسناده أنها نزلت في غدِير خم حيث قال: عن أبي هريرة قال: «من صام يوم ثمانية عشر من ذي الحجة، كتب الله له صيام ستين شهراً، وهو يوم غدِير خم؛ لما أخذ رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه.

فقال له عمر بن الخطاب: «بخ بخ يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولا كل مسلم!»! فأنزل الله تبارك وتعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» (الحسكاني، ١٣٩٣ق: ١٥٦/١؛ ابن عساكر، ١٤١٥ق: ٦٩/٣) ولم يقل أحد بأن السياق هنا في بيان احكام الشريعة وهذا المقطع من الآية في ضمنها ولكن يقولون أنها نزلت في حجة الوداع بعد إبلاغ ولاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم ينظروا الى السياق.

ثانياً: إنّ نظرية الاشتراك لم يكن لها أثر في صدر الإسلام في إبهات تفاسير المسلمين، كتفسير المجاهد (١٤١٠ق) وتفسير ثوري (١٤٠٣ق)، بل أسست هذه النظرية من القرن الخامس وما بعد.

ثالثاً: إنّ السياق في هذه الآية لا يعين مدّعي الاشتراك بل يثبت خلاف ذلك، لأنه عندما تكلم عن نساء النبي ﷺ قال: «بيوتك» وعندما تكلم عن هذا البيت المعين في هذه الآية قال «أهل البيت»، يعني بيت واحد، إذا كان كما يقول البعض ذكر الضمير لإدخال الرجال، لا لإخراج نساء النبي، الجواب: كان عليه أن يجمع البيوت لا أن يفرد البيت، ليجمع إلى بيوت نساء النبي بيت علي وفاطمة، ولكن نجد أن الآية خصت هؤلاء ببيت واحد.

أما حلاً:

أولاً: إن ما ذهب إليه المغراوي عكس ما يتبناه إستاذه ابن تيمية وما عليه السلفية، فيما لوتعارض ظاهر الآية أو سياقها مع سنة النبوي المتواترة حيث قال: «وأما السنة المتواترة التي لا تفسر ظاهر القرآن أو يقال تخالف ظاهره كالسنة في تقدير نصاب السرقة ورجم الزاني وغير ذلك، فمذهب جميع السلف العمل بها أيضاً إلا الخوارج فإن من قولهم أو قول بعضهم مخالفة السنة حيث قال أولهم للنبي في وجهه «إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله» ويحكي عنهم أنهم لا يتبعونه صلى الله عليه وآله إلا فيما بلغه عن الله من القرآن والسنة المفسرة للقرآن إما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول فلا يعملون إلا بظاهر القرآن ويطرون ما جاء في السنة، ولهذا كانوا مارقة مرقوا من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية (ابن تيمية، ١٤١٩ق: ٣١/٢)، فإذا فهمنا من ظاهر القرآن ومن سياقه شيئاً وقالت السنة الصحيحة الصريحة المتفق عليها شيئاً آخر، فالمقدم سنة رسول الله ﷺ، ل قال الألباني «ومما سبق يبدو واضحاً أنه لا مجال لأحد مهما كان عالماً باللغة العربية وآدابها أن يفهم القرآن دون الاستعانة على ذلك بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القولية والفعلية»، بل في مكان آخر من هذه الرسالة يقول: «إذا ورد الأثر بطل النظر، ولكنه بالنسبة للسنة ليس صحيحاً لأن السنة حاكمة على كتاب الله ومبينة له.» (الألباني، ١٤٠٤ق:

١٥ و٢٢)

ثانياً: وهناك عديد من الروايات الصحيحة وردت في هذا الباب وهي مقدمة على السياق في هذه الآية كما عن أحمد بن حنبل حيث قال: «حدثنا محمد بن مصعب قال حدثنا الاوزاعي عن شداد أبي عمار قال: دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم فذكروا علياً فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ قال: قلت بلى، قال: أتيت فاطمة رضي الله تعالى عنها أسألها عن علي قالت: توجه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله، ومعه علي والحسن والحسين، أخذ كل واحد منهما بيده، حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة فأجلسهما بين يديه وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه أو قال كساءً ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق. (أحمد بن حنبل، ١٤١٦ق: ٢٨/١٩٥)

ثالثاً: إن الذين قالوا بنظرية الإشتراك، ثانياً رواية ضحّاك قلنا: أولاً إن رواية ضحّاك خبر واحد ولا تستطیع المقابلة مع الأخبار المتواترة الصحيحة الواردة في ذیل هذه الآیة، التي ذكرناها، بأن الآیة نزلت في حق أهل الكساء دون غیرهم.

ثانياً: إن ضحّاك بصريح أعلام المسلمين لا يؤخذ بكلامه ولا يُعتنى به وقد ذكره من الضعفاء، وهذا ما نصّ عليه ابن جوزي حيث قال: «الضحّاك مجروح» (١٣٨٦ق: ٢/٢٧٧)، وإيضاً قال عنه: «هذا حديث موضوع، والضحّاك قد ضَعّفوه» (المصدر نفسه، ٢٨٠/٣)، وهكذا الذهبي حيث قال فيه: «كان يضع الحديث» (٢٠٠٩م: ٣١١/١)، وإيضاً ذكره في كتابه الثاني حيث قال: «عن الطيالسي: حدثنا شعبة، سمعت عبد الملك بن ميسرة يقول: الضحّاك لم يلق ابن عباس، إنما لقي سعيد بن جبیر بالري، فأخذ عنه التفسير، وسلم بن قتيبة، حدثنا شعبة، قال: قلت لمشاش: سمع الضحّاك من ابن عباس؟ قال: ما رآه قط، وقال يحيى بن سعيد: الضحّاك ضعيف عندنا.» (١٣٨٢ق: ٢/٣٢٦)

بل الأعجب من هذا هو أنّه يقرّ بأنه لم يسمع شيئاً من ابن عباس كما نقله المزي حيث قال: «عن عبد الملك بن ميسرة قلت للضحّاك: سمعت من ابن عباس؟ قال: لا. قلت: فهذا الذي تحدّثه عنه من اين أخذته؟ قال: عن ذا، وعن ذا.» (المزي، ١٤٠٠ق: ١٣/٢٩٤)

رابعاً: إن كانت هذه الآیة الكريمة تشمل إي إنسان كان، هي شرف له ويفتخر بها وفضيلة له ويعلنها للناس عند مسيس الحاجة إليها، وهذا ما نجده في كثير من مواقف الخمسة من أهل البيت عليهم السلام، فما أكثر ما كانوا يعلنون نزول هذه الآیة فيهم.

وأيضاً رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعلن بمدة ستة أشهر كما أخرج الحاكم النيسابوري بأنه كان يمرّ بباب فاطمة عليها السلام إذا خرج لصلاة الفجر يقول: «الصلاة يا أهل البيت»، ﴿نَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» (الحاكم النيسابوري، ١٤١١ق: ٣/١٧٢) وإيضاً أحمد بن حنبل رواه. (١٤١٦ق: ٣/٢٨٥؛ أبي يعلى، ١٤٠٤ق: ٢/٩)

وأيضاً ورد عن الإمام أبي الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام في كتاب المسترشد «يا أيها الناس إعرفوا فضل من فضل الله، وإختاروا حيث إختار الله وإعلموا أن الله قد فضلنا أهل

البيت بمنه حيث يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ فقد طهرنا الله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ومن كل دنية وكل رجاسة، فنحن على منهاج الحق ومن خالفنا فعلى منهاج الباطل، والله لئن خالفتم أهل بيت نبيكم لتخالفن الحق إنهم لا يدخلونكم في ردى ولا يخرجونكم من باب هدى ولقد علمتم وعلم المستخفون من أصحاب رسول الله ﷺ أني وأهل بيتي مطهرون. (الطبري الإمامي، ١٤١٥ق: ١/٤٠٠)

وعن الإمام الحسن عليه السلام في مجمع الزوائد الهيثمي حيث قال «خطب في الناس بعد ما طعن في فخذة فيقول: «يا أهل العراق، اتقوا الله فينا، فإننا أمراؤكم وضيئناكم، ونحن أهل البيت الذين قال الله جل جلاله فينا ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، فما زال يومئذ يتكلم حتى ما ترى في المسجد إلا باكياً قال الهيثمي راواه الطبراني ورجاله ثقات. (الهيثمي، ١٤١٤ق: ٩/١١٩)

ولكن نجد مثل هذا الإعلام لدى آية زوجة من أزواج النبي ﷺ ولم تدع واحدة منهن نزول آية التطهير فيها أو شمولها لها مع مسيس الحاجة ببعضهن إليها تصحيحاً لبعض مواقفها السياسية ومعارضة الخلافة القائمة آنذاك، بل على العكس من ذلك فقد اعترفت عائشة فيما تحدثت به من حديث الكساء، بعدم إذن رسول الله ﷺ لها بالدخول تحت الكساء وبقي مصرراً على عدم مشاركتها مع هؤلاء الخمسة كما ورد عن عائشة عن الزرندي بإسناده عن مجمع قال: «دخلت مع أُمِّي على عائشة فسألتها أُمِّي، فقالت لها: أَرَأَيْتِ خُرُوجَكَ يَوْمَ الْجَمَلِ؟ قالت: إِنَّهُ قَدْ كَانَ قَدَرًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فسألتها عن علي فقالت: تسأليني عن أحب الناس إلى رسول الله ﷺ عليه وآله وسلّم، لقد رأيت علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً وجمع رسول الله ﷺ عليه وآله وسلّم بثوب عليهم، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت: قلت يا رسول الله أنا من أهلك؟ قال: انك إلى خير. (الهيثمي، ١٤٢٥ق: ١٣٣)

خامساً: قد يُسأل ما هي مناسبة وضع هذه الآية ضمن آيات التي تتعلق بأزواج

النبي ﷺ؟

الجواب: قد أُجيب عنه بعدة وجوه، ونكتفي بوجه منها: إن التأمل في سياق الآيات الكريمة يلوح منه أن أزواج النبي ﷺ أو بعضهن كانت لا ترتضي ما في عيشتهن في بيت

النبي ﷺ من الضيق والظنك، فاشتكت إليه ذلك، وإقترحت عليه أن يسعدهن في الحياة بالتوسعة فيها وإيتائهن من زينتها، فأمر الله سبحانه نبيه أن يخيرهن بين أن يفارقه ولهن ما يردن، وبين أن يبقين عنده ولهن ما هن عليه من الوضع الموجود، وبهذا المعنى جاءت النصوص الكثيرة الواردة بشأن نزول آيات التخيير كما نص على ذلك مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ قال: «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة» فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقولان: تسألن رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم إعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرْذَنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعُكُمْ وَأَسْرَحُكُمْ سَرَاحاً جَمِيلاً» (الأحزاب: ٢٨)، حتى بلغ «لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْراً عَظِيماً» (الأحزاب: ٢٩) (مسلم، ١٤٢٠ق: ١٨٧/٤)، وهذه التكاليف الموجهة إليهن، وإن كانت مشتركة بين جميع المكلفين إلا أنها مؤكدة بالنسبة لهن، فيجب عليهن أن يبالغن في إمتثال أحكام الله تعالى وهذا كما أشار إليه الشيخ المظفر حيث قال: «إنما أمرهن ونهاهن وأدبهن إكراماً لأهل البيت، وتنزيهاً لهم عن أن تنالهم بسببهن وصمة، ولذا إستهل سبحانه الآيات بقوله: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ» (الأحزاب: ٣٢)، ضرورة هذا التميز إنما هو لإتصالهن بالنبي ﷺ فهن في محل أهل البيت في محل آخر فليست الآية الكريمة إلا كقول القائل يا زوجة فلان لست كأزواج سائر الناس، فتعففني وتسيري وأطيعي الله تعالى، إنما زوجك من بيت أطهار يريد الله حفظهم من الأدناس وصونهم من النقائص». (المظفر، ١٣٩٥ق: ٧٢/٢)

فكأن موقع آية التطهير للتدليل على أن أسرة الرسول الأكرم ﷺ منقسمة إلى قسمين: قسم يراد منه الإمتثال المؤكد لأحكام الله تعالى، والتأديب بالأخلاق والفضائل وهؤلاء هم الذين سماهم القرآن الكريم بـ«نساء النبي» ولم يصف حتى بيوتهن إلى الرسول الأكرم ﷺ بل أضافه إليهن في قوله تعالى «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى» (الأحزاب: ٣٣)، وقسم آخر من أسرة الرسول الكريم ﷺ إصطفاهم الله تعالى من كل رجس وطهرهم طهيراً وهؤلاء هم الذين ورد التعبير عنهم بـ«أهل البيت». ومن ثم فقد جاءت آية التطهير بمثابة الجملة الإعرافية، لتبين الفوارق بين القسمين من أسرة النبي الأعظم ﷺ لئلا يتوهم أحد أن جميع أفراد الأسرة على نسيج واحد وشاكلة واحدة. (من أراد المزيد فعليه بكتاب العصمة لسيد كمال الحيدري ١٤٢٠ق: ٢٨٤)

النتیجة

- إن ما يمكن تسجيله من النتائج التي توصل إليها ورصدها الباحث في هذه المقالة هي:
۱. قد أثبت الباحث في هذه المقالة تدليس المغراوي في آية التطهير التي وردت في حق أهل البيت عليهم السلام بتعميمها وتضعيف وتكذيب الروايات التي وردت في خصوصهم عليهم السلام مما أجمعت عليه أعلام المفسرين.
 ۲. أرصد الباحث بأن أسلوب المغراوي في هذا التفسير الموسوم بـ«التدبر والبيان بصحيح السنن» هو كما نصّ عليه المغراوي بنفسه في مقدمة تفسيره إثبات ما عليه ابن تيمية، لا ما قاله الله ولا ما ورد بصحيح السنن عن النبي صلى الله عليه وآله. (المغراوي، ۱۴۳۵ق: ۱/۱۵)
 ۳. توصل الباحث إلى أنّ المصداق الوحيد والفريد لآية التطهير كما أقر به أعلام المسلمين هم النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وفاطمة عليها السلام والحسن والحسين عليهما السلام، وهي من أبرز الآيات التي تدل على عصمتهم وتطهيرهم، وهي قد حصلت بما شاء الله أن يودع فيهم علم الأشياء وأن يفصل بينهم وبين الذنوب والمعاصي والردائل ووساوس الشيطان بمساحة شاسعة وبما يدل عليها مفاد الذي جاءت به إرادة الحصر، وإطلاق كلمة «الرجس»، ومعنى تعلق إرادة الحق تعالى بإذهاب الرجس وتأکید الطهارة على صورة جملة «وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا».

المصادر

- القرآن الكريم.

١. ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، (١٤١٧ق)، تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، المحقق: أسعد محمد الطيب، الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط: ١.

٢. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية حرّاني حنّلي، (١٤١٩ق)، عرش الرحمن وما ورد فيه من الآيات والأحاديث، المملكة العربية السعودية: الأمانة العامة، ط: ١.

٣. ابن حنبل، أحمد بن حنبل، (١٤١٦ق)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: ١.

٤. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (١٩٨٤ق)، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ط: ١.

٥. ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله، (١٤١٥ق)، تاريخ دمشق، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ط: ١.

٦. _____، (١٤٢٩ق)، الأربعين من مناقب أمهات المؤمنين، تحقيق سعد عبد الغفار علي، القاهرة: دار أضواء السلف مصر، ط: ١.

٧. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين، (١٤١٤ق)، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط: ٢.

٨. ابن الجوزي جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، (١٣٨٦ق)، الموضوعات، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط: ١.

٩. أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (١٣٩٩ق)، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط: ١.

١٠. أبو المظفر السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي، (١٤١٨ق)، تفسير القرآن، المحقق: ياسر بن إبراهيم أبو تميم - غنيم بن عباس أبو بلال، دار الوطن للنشر، ط: ١.

١١. أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكسبي، (١٤٢٣ق)، مسند عبد بن حميد، تحقيق: الشيخ مصطفى العدوي، دار بلنسية للنشر والتوزيع، ط: ٢.

١٢. أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي، (١٤٠٤ق)، مسند أبي يعلى، المحقق: حسين سليم أسد، دمشق: دار المأمون للتراث، ط: ١.
١٣. أبو القاسم، الشريف المرتضى علي بن الحسين بن محمد، (١٣٨١ش)، التلخيص في اصول الدين، تحقيق: محمد رضا الانصاري القمي، مركز نشر دانشكاهي، ط: ١.
١٤. الآجري البغدادي، أبوبكر محمد بن الحسين بن عبد الله، (١٤٢٠ق)، الشريعة، المحقق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، السعودية: الرياض، دار الوطن، ط: ١.
١٥. الألباني، محمد ناصر الدين، (١٤٠٤ق)، منزلة السنة في الإسلام وبيان أنه لا يستغنى عنها بالقرآن، الدار السلفية، ط: ١.
١٦. الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود، (١٤٢٠ق)، تحقيق: محمد احمد الامد، دار إحياء التراث العربي، ط: ١.
١٧. الترمذي، محمد بن عيسى ابن سورة، (١٤٢١ق)، الجامع الصحيح سنن الترمذي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط: ١.
١٨. الحاكم الحسكاني، عبيد الله بن عبد الله بن احمد، (٣٩٣ق)، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، لبنان: بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط: ١.
١٩. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني، (١٤١١ق)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط: ١.
٢٠. الحيدري، السيد كمال، (١٤٢٠ق)، العصمة، تحقيق: محمد القاضي، بلا نا، ط: ٥.
٢١. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، (١٤٢٧ق)، سير أعلام النبلاء، القاهرة: دار الحديث، ط: ١.
٢٢. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (٢٠٠٩م)، المغني في الضعفاء، المحقق: الدكتور نور الدين عتر، قطر: إدارة إحياء التراث، ط: ١.
٢٣. _____، (١٣٨٢ق)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ط: ١.
٢٤. الزرندی، محمد بن يوسف، (١٤٢٥ق)، محقق: عاشور، علي، لبنان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط: ١.

٢٥. السبحاني، جعفر، آية التطهير، (١٤٣٤ق)، مقيات الحج، ط: ١.
٢٦. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، (١٤١٦ق)، الإيتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، لبنان: دار الفكر، ط: ١.
٢٧. _____، (١٤٠٤ق)، الدر المنثور، دار الفكر، ط: ١.
٢٨. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، (١٤٣١ق)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الأوقاف السعودية، ط: ١.
٢٩. الطبري، ابن جرير، (١٤١٥ق)، المسترشد في إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام، محقق: محمودي، أحمد، إيران، قم: كوشانپور، ط: ١.
٣٠. الطبري، محمد بن جرير، (١٤٢١ق)، جامع البيان عن تأويل آية القرآن، تحقيق: محمود شاطر، دار احياء التراث العربي، ط: ١.
٣١. الطحاوي، أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري، (١٤١٥ق)، شرح مشكل الآثار، المحقق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: ١.
٣٢. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، مكتبة المرتضوية، ط: ١.
٣٣. العروسي الحويزي، عبد علي بن جمعة، (١٤١٥ق)، تفسير نور الثقلين، محقق: رسولي محلاتي، سيد هاشم، قم: اسماعيليان، ط: ٤.
٣٤. الفخر الرازي، فخر الدين ابن ضياء الدين، (١٤٢٣ق)، تحقيق: الشيخ خليل محي الدين الميسي، دار الفكر، ط: ١.
٣٥. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم، (١٤٢٤ق)، العين، المحقق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ط: ١.
٣٦. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، (١٣٩٧ق)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بيروت: المكتبة العلمية، ط: ٢.
٣٧. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، (١٤١٨ق)، محاسن التأويل، المحقق: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، ط: ١.
٣٨. المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف أبو الحجاج جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي، (١٤٠٠ق)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المحقق: د. بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط: ١.

۳۹. مسلم بن الحجاج القشیری النیسابوری، (۱۴۲۰ق)، صحیح مسلم، دار احیاء التراث العربی، ط: ۲.
۴۰. المشکینی، علی، (۱۴۱۳ق)، الاصطلاحات الاصول، ای ران، قم، ط: ۵.
۴۱. المظفر، محمد حسن، (۱۳۹۵ق)، قم، مکتبه بصیرتی، ط: ۱.
۴۲. المغراوی، محمد بن عبدالرحمن، (۱۴۳۵ق)، التذکر والبیان فی تفسیر القرآن بصحیح السنن، لبنان، بیروت، ط: ۱.
۴۳. اللنکرانی الإشرافی، محمد، شهاب الدین، (۱۴۲۴ق)، آیه التطهیر، تحقیق و نشر: مرکز فقه الأئمة الأطهار علیهم السلام، قم: اعتماد.
۴۴. الهیثمی، نور الدین علی بن أبی بکر بن سلیمان، (۱۴۱۴ق)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المحقق: حسام الدین القدسی، القاهرة: مکتبه القدسی.
۴۵. الواحدی، علی بن أحمد الواحدی، (۱۴۱۱ق)، أسباب نزول القرآن، المحقق: کمال بسیونی زغلول، دار الکتب العلمیه.